الباب السابع

أغنياء وفقراء... من التاريخ!!

فصل أول : فقراءٌ من التاريخ...

فصل ثـانٍ : أغنياء من التاريخ...

ليس من قبيل المصادفة أن يُرسل الله تعالى الأنبياء والمرسلين ، إنما كان باستطاعته أن يُرسل الكتب السماوية ، ويطلب من الناس اتباع ما جاء فيها ، لكن من الحكم في ذلك أن المبادئ والقيم والنظريات والأفكار ، لا تعيش إلا بالمثل الحيّ ، من هنا وُصف النبي ﷺ بأنه كان قرآناً يمشي على الأرض ، أي أنه ترجم القرآن من النظريّ إلى الحياة العملية . .

فإن تحدّث ـ مثلاً ـ عن الصدّق ، جاءت ترجمة ذلك في شخص سيدنا محمد ﷺ فكان الصادق الأمين .

ولذلك قالوا : إن النبي ﷺ الواحد بمثله الخلقي الحيّ ، وجهاده الدؤوب ، أهدى للبشرية من آلاف الكتاب ، الذين ملؤوا بالفضائل والحكم ، بطون المجلدات . . . من هذا المنطلق ونحن نتحدث عن الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة ، كان لا بد لنا من ترجمان حول هذا الحديث ، لا بدّ لنا من قدوة وشخصية تتمثل هذه الصفات ، لذلك لا بدّ أن نبحث عن أشخاص من التاريخ كانوا فقراء ، ونبحث عن أشخاص كانوا أغنياء ، ثم نسلط الأضواء الكاشفة عن رأي الإسلام في كل منهما . . . ونضع غنى أولئك في ميزان الإسلام الذي تحدثنا عنه . . ونضع فقر أولئك الفقراء في هذا الميزان .

لنضع التقرير النهائي ـ كما يفعل المحاسبون بعد أن يقدموا قوائم الحسابات لشركة ما ـ لنرى أيهما يفضّل الإسلام : الأغنياء أم الفقراء ؟!

والحديث في ذلك يطول ويطول ، لكن سأكتفي بنماذج فقط من التاريخ القديم ، وأركّز الحديث على الفترة الإسلامية لألتقط منها بعض النماذج من فقراء ، ومن أغنياء .

الفصل الأول

فقراء من التاريخ!!

تحدثنا في الفصول السابقة أن ميزان الإسلام لا يكره الفقراء ، وإنما يكره الفقر لأنه قرين الكفر ، وتحدثنا أنه يطالب الفقراء بعددٍ من الأخلاقيات والآداب وتحدثنا أن قيمة الإنسان لا تأتي من قدر ما يملك من متاع الدنيا إنما يأتي من الخدمات التي يقدمها الإنسان للآخرين ، وبقدر ما يصبغ الإنسان نفسه بتعاليم هذا الدين الحنيف.

لكن مع ذلك أحببت أن أنقل ـ وباختصار ـ ترجمة بعض النماذج لأشخاص كانوا فقراء ، ومع ذلك كانوا قمماً في الميزان الإسلامي ، من ذلك :

● **الصحابي الجليل عُمير بن سعد الأنصاري :**

نشأ يتيماً فقيراً منذ نعومة أظفاره ، وشبّ على ذلك ورأى بعينه ـ في غزوة تبوك ـ عثمان بن عفان يأتي بجرابٍ فيه ألف دينار ذهباً ويقدّمه للنبي صلوات الله عليه.

ورأى أيضاً عبد الرحمن بن عوف وهو يحمل على عاتقه مائتي أوقيةٍ من الذهب ويلقيها بين يدي الحبيب محمدٍ ﷺ.

فهل أثّر ذلك سلباً على موقفه ؟ هل قال : أنا لا أملك دراهم ولا ذهباً إذاً أنا مظلوم ؟ هل تراجع وتخاذل ؟!

أبداً : بل إنه وقف ـ بفقره ـ على مرتبةٍ رفيعةٍ ، وسما سموّاً قلّ مثيله ، وكانت حياته كلها حافلة بالرفعة والإباء ، من ذلك مثلاً :

أن مدينة حمص كان أهلها شديدي التذمّر من ولاتهم ، لكن الفاروق هذه المرة اختار لهم عمير بن سعد ، وعندما وصل إليهم وقف خطيباً يقول :

أيها الناس ، إن الإسلام حصنٌ منيع وباب وثيقٌ ، وحصن الإسلام العدل وبابه الحق.. فإذا دُكّ الحصن وحُطّم الباب استُبيح حمى هذا الدين ، وإن الإسلام ما يزال منيعاً ما اشتد السلطان ، وليست شدّة السلطان ضرباً بالسوط ولا قتلاً بالسيف ولكن قضاءً بالعدل وأخذاً بالحق...

وتمضي سنة كاملة على ذلك الأمير الفقير ، وخلالها لم تصل الفاروق منه رسالة ، فأرسل إليه أن ائتني مدينة رسول الله ﷺ .

وعندما وصل إليه ، نظر الفاروق إلى عمير فأدهشه حاله ورثّة ثيابه وشحوب وجهه فقال : ما بك يا عمير ، وما معك من الدنيا ؟!

قال : يا أمير المؤمنين ، أنا صحيحٌ معافى ، ومعي جرابي وقصعتي وقربتي ، والدنيا كلها تبعٌ لمتاعي هذا ، وفضلةٌ لا حاجة لي ولا لأحد غيري فيها!!

قال عمر : وهل جئت ماشياً ؟!

قال عمير : نعم يا أمير المؤمنين .

فقال : أما أُعطيت من الإمارة دابة تركبها ؟ فقال : هم لم يعطوني ، وأنا لم أطلب منهم!! فقال : وأين ما أتيت به لبيت المال ؟ فقال : لم آت بشيء ، لأني عندما وصلت حمص جمعت صلحاء أهلها ، وولّيتهم فيئها ، فأنفقوا ذلك بالعدل.

نعم يا عمير بن سعد ، لقد أصبحت نموذجاً يُقتدى ، فالفقر عندك ليس

قلّة المال ، بل الفقر أن يلقى الإنسان الله وليس معه حسنات .

نعم يا عمير بن سعد ، لقد ودّعت الدنيا وأنت واثق الخُطَى ، وكاهلك ليس عليه شيء من حطام الدنيا ، ولا يوجد عليه أثقال ولا أعباء.

نعم يا عمير بن سعد ، لقد نجحت في امتحان الدنيا ، حيث لم تستطع أن تغريك بمتعها وزخرفها وزينتها ، ورجحت كفّة ميزانك بشهادة الفاروق عمر رضي الله عنه : وددْت أن لي رجالاً مثل عمير بن سعدٍ أستعين بهم في أعمال المسلمين ، إن عميراً نسيجاً وحده!![1] .

● **الصحابي الجليل عمار بن ياسر :**

كان من السابقين إلى الإسلام هو وأخوه عبد الله وأبوه وأمه ، ولقد عذبوا في الله على إسلامهم عذاباً شديداً فكانت أمه أول شهيدة في الإسلام ، وقد مرّ رسول الله ﷺ وهم يعذبون فقال لهم : **«صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة»** .

ويعيش عمار الحياة عيشة الفقراء : لا مال ولا متاع ولا زينة ، إنما الكفاف فقط!! فهل أثّر ذلك في كفّة ميزانه ؟!

هل منعه الفقر أن يكون من حملة أوسمةٍ كان المصطفى يوزّعها بين الحين والآخر ؟ يحدثنا التاريخ أنه بعد الهجرة ، اشترك المسلمون في بناء المسجد النبوي ، واندفع عمار يحمل لبنتين لبنتين ، بينما الآخرون يحمل الواحد منهم لبنة لبنة ، فما كان من الحبيب محمد صلوات الله عليه إلا أن قال لعمار : **«يا أبا اليقظان ، لا تشقق على نفسك»**.

فقال عمار : يارسول الله ، إني أحب أن أعمل في هذا المسجد .

---

(١) للتوسع راجع: أسد الغابة: ١/٢٩٣، وسير أعلام النبلاء: ١/٨٦ والأعلام: ٥/٣٦٤، والإصابة (٦٠٣٦).

فقال الرسول : **«أنت من أهل الجنة ، وتقتلك الفئة الباغية»** .

. . . وبعد فترة جاء عمار إلى بيت رسول الله واستأذنه بالدخول ، فقال رسول الله : **«ائذنوا له ، مرحباً بالطيب المطيّب»** .

لكنه يارسول الله فقير معدم بائس!!

ذات مرّة جلس عمار بين الأصحاب فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال : **«إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم فاقتدوا بالذين من بعدي ـ أبي بكر وعمر ـ واهتدوا بهدي عمار ، وما حدثكم به ابن مسعود فصدّقوه»** .

وينتقل الرسول صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى ، فكيف كان حال عمار من بعده ؟

لقد ثبت ثبات الأبطال في معركة اليمامة ، دونما اهتمام بالدنيا وحطامها ، ناظراً إلى رضى الله تعالى ، منادياً بالمسلمين : يا معشر المسلمين ، أمن الجنة تفرّون ؟ إليّ إليّ ، أنا عمار بن ياسر!

أيها المسلمون . الرواح إلى الجنة ، والله إن الجنة تحت ظلال البيض وينطلق عمار إلى الله ، يبتغي الشهادة في سبيله ، لكن لم تحن بعد يا عمار فيصيح : اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته ، اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبُة سيفي هذا في صدري ، ثم أنحني عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت ، اللهم إني أعلم مما علمتني أني لا أعمل عملاً صالحاً هذا اليوم هو أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين ولو أعلم أن عملاً من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته.

ويصل التاريخ إلى (صفين) ليحدثنا بما قاله عمار للإمام علي :

يا أمير المؤمنين ، إن استطعت ألا تُقيم يوماً واحداً فافعل ، اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادعهم

إلى رشدهم فإن قبلوا سعدوا ، وإن أبوا إلا حربنا ، فوالله إن سفك دمائهم ، والجد في جهادهم لقربة عند الله وهو كرامة منه.

لكن التاريخ يعجب من عمار حينها وقد بلغ من العمر (٩٣) عاماً!!

وينال عمار الشهادة وكان آخر كلماته : الجنة تحت الأسنة ، اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه!!

نعم يا عمار بن ياسر ، لقد عشت الحياة فقير الحال ـ ظاهراً ـ لكنك كنت من أغنى الأغنياء في ميزان الشريعة ، غنياً في العقيدة ، في الشجاعة والإباء ، غنياً في حبّك لله ورسوله وللمؤمنين.

نعم يا عمار ، لقد فزت في امتحان الدنيا ، فكنت شهيداً اشتاقت إليك الجنة ، فهنيئاً لك ذلك[1] .

● **صهيب الرومي ـ رضي الله عنه ـ :**

كان عبداً لسيد من سادات مكة هو عبد الله بن جدعان ، عمل في التجارة إلى أن أصبح غنياً.. وعندها بزغت شمس الإسلام ، فاتّجه إلى رسول الله ﷺ وسمع منه وأعلن إسلامه.

كان هذا تبريراً للمشركين بأن يسلطوا عليه ألواناً من الأذى ، حتى أذن رسول الله للناس بالهجرة إلى يثرب.. وتحيّن صهيب الفرصة لذلك حاملاً معه من الذهب الكثير الكثير ، لكن المشركين كانوا يراقبونه ، فلحقوا به قائلين :

جئتنا صعلوكاً ، فلما كثر مالك هممت بالرحيل ؟! فقال لهم : أرأيتم إن تركت لكم مالي ، أتخلّون سبيلي ؟ قالوا : نعم ، فأعطاهم ما معه ودلّهم على بقية أمواله!! ولما وصل إلى المدينة ورآه رسول الله ﷺ وليس

---

(١) للتوسع راجع الطبري: ٦/٢١، وسير أعلام النبلاء: ٢/١٢، والأعلام: ٥/١٩١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣/١٣٥.

معه شيء قال له ـ وبوجه طلق ـ : «ربح البيع يا أبا يحيى ، ربح البيع» .

وأنزل الله تعالى قوله :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

نعم يا صهيب ، ربح بيعك ، ونِعْمَ المقايضة هي ، لقد أعطيتهم الدنيا وما فيها وربحت الجنة ورضى الله ، فكنت بحق الفائز في ذلك . .

نعم يا صهيب ، لم يؤثر المال عليك ، ولم تستطع قلّته أن تؤثر على كفّة الميزان بل على العكس ، عندما وصلت المدينة وأنت لا مال لك ولا متاع عندها نلت الوسام من القائد العظيم محمد ﷺ : ربح البيع يا أبا يحيى .

هذا نموذج من النماذج التي يقدمها الإسلام وهو يعلن أن الفقر مشكلة لكن الفقير العفيف المسلم الراضي بما قسمه الله له ، ليس مشكلة وليس عاراً ، إنما هو فخر ووسام شرف ، إنه فقر ـ في رضى الله ـ يساوي الغنى كله ، بل يعلو ويسمو عليه[1] .

● **عتبة بن أبان ـ رضي الله عنه ـ :**

صحابي جليل زاهد في حطام الدنيا ، لا يعتني كثيراً بتحلية ظاهره أمام الناس ، لا يأكل إلا القليل ، وعندما سألوه عن ذلك قال : إني أخاف أن يُقال لي يوم القيامة : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

---

(١) للتوسع راجع: طبقات ابن سعد: ٣/٢٢٦، وصفة الصفوة: ١/١٦٩، والاستيعاب: ٢/١٧٤، والبداية والنهاية: ٧/٣١٩.

ولم يهتم بثناء الناس له أو عدمه ، بل كان يرى أن ابتغاء المنزلة عند الناس سقوط للمنزلة عند الله!!

وكان يقول : لن تنصر الله في معركة حتى تنصره على نفسك بتغليب أمره على هواك ، فإن كنت فارس هذه المعركة فأنت فارس المعركة الأخرى بإذن الله.

. . . نعم لقد عاش عتبة الحياة وهو ينتقل من فقر إلى فقر ، صابراً ، ناظراً إليها نظرة إنسان يكره شيئاً كراهة مغلّظة ، حتى أنه كان لا يجد فرقاً بين الموت والحياة لذلك كان يردد في دعائه :

«اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطون السباع!!» .

ذلك لكي لا يُعرف له قبر فيصبح مع تقادم الأيام مكان يزار ، لتجمع الناس حوله فيشك أن يكون ذلك من الشوائب التي تُخالط الجهاد!!

أي دقّة في الوزن عندك يا عتبة ؟ أيّ إخلاص كنت تحمل في صدرك ؟ أيّ استحقار للدنيا وأي استخفاف بها كان لديك ؟

نعم يا عتبة ، لقد كنت فقيراً زاهداً ، لكنك كنت عملاقاً استطعت أن تجمع بين إيجابية المصلح المجاهد ، وبين رهبانية العابد الزاهد المخلص.

نعم ياعتبة ، لقد صدقت الله في دعائك فصدقك الله في نيل الشهادة في سبيله. . يحدثنا التاريخ أن عتبة هذا انطلق في إحدى المعارك ـ وكان عمره (٣٠) سنة ـ يقاتل ويقاتل ، حتى سقط شهيداً وهو يردّد :

«الله أكبر ، فزت وربّ الكعبة» .

● **أبو ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ :**

كانت قبيلة أبي ذر كلها فقيرة الحال ، تعيش على ما تأخذه من التجار الذين يمرّون في واديها (ودّان) ، وعندما سمع أبو ذر ببعثة رسول الله ﷺ

انطلق إليه وأعلن إسلامه واستأذنه أن يعلن ذلك على مسامع صناديد قريش ، وبالفعل خرج إلى البيت الحرام والقوم جالسون فنادى بأعلى صوته يا معشر قريش ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقاموا إليه ، وراحوا يضربونه ضرباً مبرّحاً حتى كاد أن يموت حتى تدخل العباس بن عبد المطلب وأنقذه ، وانطلق إلى قومه داعياً إلى الحق ، فأسلموا جميعاً ونالوا الوسام الرفيع من سيدنا رسول الله :

«غفار غفر الله لها ، وأسلمُ سالمَهَا الله»[1] .

ومع كل فقره ، استأذن رسول الله أن يقوم على خدمته ، فنال الشرف في ذلك ، وفي ذات يومٍ قال النبي ﷺ لأصحابه :

«ما أقلّت الغبراء ـ الأرض ـ ولا أظلّت الخضراء ـ السماء ـ من رجلٍ أصدق من أبي ذر» ، لكن يا رسول الله إنه فقير ليس لديه العقارات ولا المال ولا الصناديق المليئة بالذهب !!

هذا هو الميزان الإسلامي : لا يرصد الأحداث حسب الأهواء ، ولا ينظر إلى الإنسان على حسب ما يجمع ، بل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] .

اسمع إليه وقد دخل عليه أحد الصحابة فلم يجد عنده متاعاً فقال : يا أبا ذر . أين متاعكم ؟! فقال : لنا بيتٌ هناك ـ في الآخرة ـ نرسل إليه صالح أعمالنا ، وأحسن حسناتنا!! فقال الرجل : ولكن لا بدّ لك من متاعٍ ما دمت في دار الدنيا . . فأجابه : ولكن صاحب المنزل لا يتركنا فيه!!

فرضي الله عنك ورحمك وغفر لك يا أبا ذر.

---

(١) رواه الإمام مسلم.

● **الزهراء فاطمة. . . وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ :**

من عادات الناس أن الزعيم وذا المنصب وذا السلطان حين يريد تزويج ابنته يختار لها رجلاً ذا منصب ، أو غنياً .

أما سيدنا رسول الله ﷺ فكانت له فاطمة ـ رضي الله عنها ـ والتي كان يحبّها حباً جماً إلى درجة أنه قال لها ذات مرة :

«ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة ، أو سيدة نساء المؤمنين ؟»[1] .

فلمن زوجها رسول الله ﷺ ؟

لقد اختار لها الإنسان الفقير ـ في الأموال ـ الذي لا يملك الأثاث الفاخر ، ولا غرف النوم الأجنبية!! ولا السيارات ولا الشقق المطلة على البحار!! بل يروي لنا العريس ـ علي ـ نفسه فيقول : أُهديت ابنة رسول الله إليّ فما كان فراشنا ليلة أُهديت إلا مسك كبش!!

وفي رواية الإمام أحمد عن أبي يزيد المدني قوله : لما أُهديت فاطمة إلى عليّ ـ رضي الله عنهما ـ لم تجد عنده إلا رملاً مبسوطاً ووسادة وجرّة وكوزاً!!

ويأتي النبي القائد ـ صلوات الله عليه ـ لينظر إلى هذا البيت الذي احتضن ابنته المحبّبة ، وعريسها ليعطي الخط العريض ، وهو أحد موازين الإسلام والتي افتقدها المجتمع اليوم ، فتحولت الحياة إلى رسميات وعادات وأعراف!!

فيقول : **«بارك الله لقومٍ جُلّ آنيتهم الخزف»** .

---

(١) متفق عليه.

فهل كان للفقر تأثير في حياتهما الزوجية ؟ هل كان الفقر محطماً للسعادة ؟!

أبداً فالقضية هي كما قال الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكنّ أخلاق الرجال تضيق..

إنه الرضا الذي يفعل الأعاجيب.. إنه إكسير الحياة الذي يضفي على الحياة السعادة فينفخ الروح في الجوامد فتتحرك[1] .

● **أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ :**

يحدثنا أبو الدرداء عن نفسه فيقول : لقد كنت تاجراً قبل عهدي برسول الله ﷺ ، فلما أسلمت أردتُ أن أجمع بين التجارة والعبادة ، فلم يستقم لي ما أردت ، فتركت التجارة وأقبلت على العبادة .

والذي نفس أبي الدرداء بيده ، ما أحبُّ أن يكون لي اليوم حانوتٌ على باب المسجد فلا تفوتني صلاةٌ مع الجماعة ، ثم أبيعُ وأشتري فأربح كل يومٍ ثلاثمائة دينارٍ!! لكن هل الإسلام يحرّم التجارة! ؟

يتابع أبو الدرداء حديثه : إني لا أقول إن الله عز وجل حرّم البيع ، ولكني أحب أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وفي زمن الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ أراد أن يولّيه إمارة الشام فرفض قائلاً :

إن أردتَ ، أذهبُ إليهم لأعلمهم كتاب الله وسنة رسوله ، ولما وصل دمشق وجد الناس قد أولعوا بالترف فدعاهم إلى المسجد وقال فيهم :

ما لي أرى علماءكم يذهبون ـ يموتون ـ وجهّالكم لا يتعلمون ؟! وأراكم قد أقبلتم على ما تكفّل لكم به الله عز وجل ، وتركتم ما أمرتم

---

(١) للتوسع راجع كتابنا واحة الصالحين: ٣٨ـ٣٩.

به ؟! ما لي أراكم تجمعون ما لا تأكلون ؟!! وتبنون ما لا تسكنون ، وتؤمّلون ما لا تَبْلغون!!

لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأمّلت ، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بوراً ، وأملهم غروراً ، وبيوتهم قبوراً!!

هذه عاد ـ يا أهل دمشق ـ قد ملأت الأرض مالاً وولداً ، فمن يشتري منيّ تركة عادٍ اليوم بدرهمين ؟!

ويطلب معاوية ابنة أبي الدرداء لابنه يزيد ، فيرفض أبو الدرداء!![1] .

إن الميزان هنا لم يرجح فيه كفة الغنى ولا الزعامة ولا... إنما رجحت قضية الأخلاق والسلوك والدين فزوجها لواحد من عامة المسلمين!!

● **أسيد بن الحضير ـ رضي الله عنه ـ :**

في العام العشرين من الهجرة النبوية وفي خلافة الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ ودّع أسيد بن الحضير الدنيا ، لينتقل إلى هناك حيث رسول الله والأصحاب ، فوُجد أن عليه ديناً مقداره أربعة آلاف درهم ، فهل كانت هذه الحياة بشظفها وقلة ما أعطته حاجزاً أمامه ليرتقي إلى العلياء ؟

يحدثنا البخاري ومسلم أن أسيداً هذا كان بالإضافة إلى شجاعته في الغزو كان كثيراً ما يُرى عاكفاً يتلو كتاب الله ، وكان صوته رخيماً عذباً خاصة في جوف الليل ، وذات يوم راح يقرأ من أول سورة البقرة ، والتفت فجأة إلى السماء فرأى غمامة كالمظلة لم تر العين أروع ولا أبهى منها قط وقد عُلّق بها أمثال المصابيح ، ولما كان الصباح توجّه إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما رأى ، فقال النبي : «**تلك الملائكة كانت تستمع لك يا أسيد ،**

---

(١) للتوسع يراجع تاريخ دولة الإسلام للذهبي: ٢/١٠٧، حلية الأولياء: ١/٣٠٨.

ولو أنك مضيت في قراءتك لرآها الناس ولم تستتر منهم» .

وكان شديد الحبّ للرسول ﷺ ، وكانت أمنيته أن يمسّ جسده جسد رسول الله ، وتشاء العناية الإلهية أن يتحقق له ذلك :

فذات يوم كان أسيد يحدث القوم ببعض الطرائف ، فطعنه رسول الله ﷺ في خاصرته بيده ـ دليل على استحسانه له ـ فقال أسيد : أوجعتني يارسول الله .

فقال نبي الرحمة ﷺ : اقتصّ مني يا أسيد

فقال أسيد : إن عليك قميصاً ولم يكن عليّ قميص حين ضربتني!

فرفع رسول الله قميصه عن جسده ، فاحتضنه أسيد وجعل يقبّل ما بين إبطه وخاصرته وهو يقول : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، إنها لبغية كنت أتمنّاها منذ عرفتك ، وقد بلغتها الآن!![1] .

أي وسام يفوق ذلك... الملائكة تسمع صوته في قراءة القرآن ، ويقبّل جسد الحبيب الأعظم وهو الذي عندما مات كان عليه الديون!!

● **سهل بن حنيف ـ رضوان الله عليه ـ :**

حينما نريد إثبات فكرة أن الفقر لم ولن يكون عائقاً لأصحابه عن مراتب السيادة والقيادة نجد خير دليل على ذلك الذي خاضوا مع رسول الله ﷺ معركة بدر ، لقد كانوا جياعاً فقراء لذلك كان المصطفى يقول في دعائه :

«اللهم إنهم جياع فأطعمهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم حفاة فاحملهم!!» .

---

(١) للتوسع يراجع جامع الأصول لابن الأثير: ٩/ ٣٧٨، الأعلام: ١/ ٣٣٠.

وكان من هؤلاء الصحب الكرام سهيل بن حنيف ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .

وتأتي معركة أحد ، ليقف سهيل أمام النبي ﷺ مدافعاً رامياً للنبال حتى قال الرسول : «**أنبلوا سهيلاً ، فإنه سهل**» .

ويعود الرسول صلوات الله عليه من أحد ، ويناول سيفه لفاطمة كي تغسل ما عليه من الدم ، وكان معه عليّ ، وبدأ الحديث عن القتال والمعركة هنا أعلن الرسول ﷺ شيئاً عظيماً : إنه أراد أن يذكّر علياً أن من دافع عنه لن ينساه طيلة الأيام فقال صلوات الله عليه :

«**لئن كنت أجدت الضرب بسيفك لقد أجاده سهل بن حنيف وأبو دجانة وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمة . .**» .

وتصل المسيرة إلى علي ليصبح خليفة بعد عثمان ـ رضي الله عنهم ـ ليقف سهل معه وقفة الأبطال الشجعان ، لم يمنعه فقره أن يكون من السابقين إلى الخيرات . . لم يمنعه فقره أن يصل إلى أعلى الدرجات .

وتنتهي حياة سهل الدنيوية ، ويقف عليّ ـ كرم الله وجهه ـ ليصليّ عليه ، فكبّر عليه ست تكبيرات ـ علماً أن صلاة الجنازة فيها أربع تكبيرات فقط ـ ولما سألوه قال : لقد شهد سهل غزوة بدر ، والنبي قال في أهل بدر : «**لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم**»[1] .

● **أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي ـ رضي الله عنه ـ :**

يروي عن نفسه قائلاً : إنه كان يشتدّ بي الجوع حتى إني كنت أسأل

---

(١) للتوسع يراجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٥ـ٢٣ .

الرجل من أصحاب رسول الله عن الآية من القرآن ـ وأنا أعلمها ـ كي يصحبني معه إلى بيته فيطعمني!!

لكن هل منعه ذلك من الصعود إلى الدرجات الرفيعة! ؟ ها هو يمرّ في يوم من الأيام بسوق المدينة فيرى انشغال الناس بحطام الدنيا ، فيصيح بهم :

ما أعجزكم يا أهل المدينة ، أنتم هنا بينما ميراث رسول الله ﷺ يقسم في المسجد ، فانطلق القوم مسرعين فلم يجدوا فيه إلا القرآن ومجلس العلم ، وبعد أن عادوا قالوا له : يا أبا هريرة لم نر ما قلته لنا ، فقال : أوما رأيتم في المسجد أحداً ؟!

قالوا : بلى ، رأينا قوماً يصلّون ، وقوماً يقرؤون القرآن ، وقوماً يتذاكرون في الحلال والحرام ، فقال : ويحكم ، ذلك ميراث محمد ﷺ.

ويدور الزمن دورته ليصبح أبو هريرة والياً على المدينة المنورة زمن معاوية بن أبي سفيان فهل تغيّرت نفسه وتبدّل طبعه ؟

ها هو يمرّ ذات يوم بأحد طرق المدينة ، وكان يحمل الحطب على ظهره لأهل بيته ، فمرّ بأحد الصحابة ، فقال له : أوسع الطريق للأمير ، وللحزمة التي على ظهره!!

وتأتي ابنته وتقول له : يا أبت إن البنات يعيّرنني ، ويقلنَ : لِمَ لا يحلّيك أبوك ـ وهو والي ـ بالذهب! ؟

فقال لها : يا بنيّة قولي لهم : إن أبي يخشى عليّ حر لهيب جهنم!!

ويأتيه الموت فيبكي ويقول : أما إني لا أبكي على دنياكم هذه ، ولكني أبكي لبعد السفر وقلّة الزاد ، لقد وقفت في نهاية طريقٍ يفضي بي إلى الجنة أو النار ، ولا أدري في أيهما أكون!!

فهل منعه الفقر أن يكون من كبار المحدّثين ؟! لقد حفظ للمسلمين

ما يزيد عن (٣٥٠٠) حديثاً من أحاديث المصطفى صلوات الله عليه ، فرضي الله عن أبي هريرة.

● **خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ :**

كان من العبيد الفقراء الذين يباعون في الأسواق كما تباع الأمتعة ، لكنه لما علم بظهور دعوة رسول الله ﷺ توجّه إليه وأصبح سادس من أسلم.

وكان إعلانه الإسلام سبباً لإيذائه الشديد من قبيل أسياده المشركين ، لكن ذلك أدّى إلى ازدياد صلابته وعقيدته.

وتمرّ الليالي مسرعةً ليصبح من الأغنياء ، فهل تغيّر فيه شيء ؟ هل قسا قلبه وساءت طباعه وتكبّرت نفسه ؟!

أَبداً ، بل حدث التاريخ عن تصرفه في المال حديثاً عجيباً فقال :

لقد وضع دراهمه ودنانيره في موضع من بيته يعرفه ذوو الحاجات من الفقراء والمساكين ، ولم يشدد عليه رباطاً ـ ولم يخبئه ـ ولم يُحكم عليه قفلاً ، فكانوا يأتون داره ، ويأخذون منه ما يشاؤون دون سؤالٍ أو استئذان!!

إنه الميزان الفريد الذي تحدثنا عنه فلا الفقر يؤدي إلى السخط والحسد والحقد ، ولا الغنى يؤدي إلى الطغيان والعنجهية والكبر.

إنما إذا أتى المال استُخدم في الإنفاق والحلال والجهاد، وإن ذهب وافتقر الحال فليس هناك إلا الصبر والرضى بما قسم الله.

وتحضر خباباً الوفاة فيبكي ويقول لمن حوله : إن في هذا المكان ثمانين ألف درهم ، والله ما شددت عليها رباطاً قط ، ولا منعت منها سائلاً قط.

وإنما أبكي لأن أصحابي مضوا ولم ينالوا من أجورهم في هذه الدنيا

شيئاً ، وإنني بقيت فنلت من هذا المال ما أخاف أن يكون ثواباً لتلك الأعمال!!

ويشاء القدر أن يكون علي بن أبي طالب هو الذي يعلقّ لخباب نيشان ـ وسام ـ الفخر والاعتزاز ، فيقف علي على قبره ويقول :

رحم الله خباباً ، فلقد أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

● **ربيعة بن كعب ـ رضي الله عنه ـ :**

خدم رسول الله ﷺ فترة طويلة ، لا يغادره في النهار ، ويجلس على باب بيته في الليل فربما أراد شيئاً ما ، وكان من عادة المصطفى أن يكافئ بالأحسن ، فقال له ذات يوم : «**يا ربيعة سلني شيئاً أعطه لك**» .

وماذا يكون حلم الفقير ؟ الذي لا زوجة له ولا مسكن ولا مال ؟!

وخاصةً أنه يعتقد جازماً أن دعوة رسول الله ﷺ محققةٌ لا محالة.

لكن الإسلام حين ربىّ الأصحاب ، سمى بهم إلى العلياء ، فناطحوا السحاب وارتفعوا على حطام الدنيا ، ونسوا أنفسهم أمام وعد الله بالجنان...

فقال ربيعة : يارسول الله أسألك مرافقتك في الجنة .

فقال النبي ﷺ : «**من أوصاك بذلك**» .

قال : ما أوصاني به أحد ، لقد نظرت إلى الدنيا الفانية ، فأردت الباقي وفضّلته على الفاني .

فقال : «**أو غير ذلك يا ربيعة ؟**» قلت : هو ذاك

فقال : **إذن أعنّي على نفسك بكثرة السجود**» .

فنال وسام مرافقة الحبيب محمد ﷺ ولم يمنعه فقره من ذلك.

● **ذو البجادين ـ رضي الله عنه ـ :**

عاش فقيراً وكان من أهل الصُّفَّة ، لكن أحلامه كانت تسابق الجوزاء ، ففي الطريق إلى غزوة تبوك ، اقترب ذو البجادين من رسول الله ﷺ وقال له : ادع الله لي بالشهادة!! نسي الفقر ، ونسي شظف العيش ونسي الدنيا.. وراح يبحث عن وسام الشهادة ، وكان ذلك.. بل لقد قلّده رسول الله ثلاثة أوسمة :

١ـ قال عنه : «**ارفقوا بأخيكم رفق الله بكم ، فإنه كان يحب الله ورسوله..**» .

٢ـ قال عنه : «**رحمك الله ، إن كنت لأواباً تلاّء للقرآن**» .

٣ـ وقال عنه : «**اللهم إني قد أمسيت عليه راضياً فارض عنه**» .

فهنيئاً لك يا عبد الله بن عمرو المزني ورضي عنك وأرضاك .

● وفي الجعبة التاريخية أشخاص وقصص وأحداث يطول ذكرها ، لكن نريد أن يتبيّن كل إنسان أن الفقر لم يكن في يومٍ من الأيام عائقاً أمام ارتقاء الإنسان ووصوله إلى أعلى المراتب : وقد تزوج رسول الله أم حبيبة وكانت من الفقراء (الإصابة : ٤/٤٤١ ، وأعلام النساء لكحالة : ١/٤٦٣..)

وكان سيدنا جعفر ـ رضي الله عنه ـ يحنو على الفقراء ويتعهدهم ويطلب الدعاء منهم : (طبقات ابن سعد : ٤/٢٢ ، تهذيب التهذيب : ٢/٩٨ ، الكامل لابن الأثير : ٢/٩٦) وفي حياة الفاروق وقفات ووقفات أكتفي بالإشارة إلى حادثة فيها العبر : حين أرسل إليه قائد جيشه سلمة الأشجعي بحلي من الذهب والفضة : (الإصابة ٢/٧ ، وحياة الصحابة : ١/٣٤١ ، وأسد الغابة : ٢/٤٣٢).

لكن هل كان ذلك في الصحابة فقط ؟!

أبداً ففي حياة التابعين صورٌ ولمحاتٌ تجعل التاريخ يقف بإكبارٍ وإعجابٍ أمام هؤلاء العمالقة الأبطال ، الذين ارتفعوا فوق الدنيا وزخرفها ، فنظروا إليها نظرة دونية ، بل طلقوها طلاقاً لا رجعة بعدها ، وسموا وارتفعوا إلى عنان السماء ، مؤثرين ما عند الله على ما في الدنيا ، لا يهمهم أتت الدنيا عليهم أو فارقتهم فكلا الأمرين سواء.

وكان من هؤلاء إبراهيم بن الأدهم الذي كان من أسرة فيها النعيم الواسع والجاه العريض ، لكن لما أنار الله قلبه وهداه ، انطلق زاهداً ورعاً عاملاً بيديه ، آكلاً لقمته بالحلال فاشتغل بالزراعة والحصاد.

وكان من هؤلاء أويس القرني الذي قال عنه التاريخ : أويس سيد العباد ، وعلم الأصفياء من الزهاد.

هؤلاء نماذج من التاريخ ، امتازوا بقلّة المال والمتاع ، لكن كان لهم شأن عظيم وكبير ، مثّلوا لنا الكلام النظري ، وترجموه إلى تطبيق عملي فكانوا أشخاصاً يسيرون على الأرض لكن أرواحهم ترفرف في ظلال الجنة.

* * *

الفصل الثاني

أغنياءٌ من التاريخ!!

في كتاب الله تعالى نماذج عن أغنياء اتبعوا الخطوط التي رسمها لهم الله فكانوا من المجاهدين والمنفقين الذين يحبهم الله... وفيه نماذج عن أغنياء طغوا وبغوا فكانت نتيجتهم الحتمية الدمار، العذاب الأخروي.

إذن المال وسيلة إن استخدم في خدمة الناس، وإعانة الفقراء والمساكين، كان ذلك طريق إلى رضى الله والفوز بالجنان، وإن اسُتخدم لخدمة الشهوات الحيوانية كان طريقاً إلى سخط الله وشراء جهنم وبئس المصير.

ولنأخذ نماذج من حياة الصحابة، ونماذج مما ذكره القرآن الكريم، ليكون ذلك تجسيداً عملياً وأنموذجاً يترجم لنا النظريات.

● **العالم بلعام بن باعورا :**

عالم كبير من علماء بني إسرائيل، كان من أتباع سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ وفي كل يوم يذهب للنصح والإرشاد، وذات يوم سألوه : كم يعطيك موسى ـ عليه السلام ـ لقاء ما تبذل من جهد في تبليغ الرسالة، قال : إنما أبتغي الأجر من رب موسى..

وعرضوا عليه الأموال الكثيرة، هنا انزلق العالم وباع دينه بدنياه، فكان أنموذجاً يتلوه الناس في القرآن الكريم إلى يوم الدين، وكل عالم ينبطح أمام الأعتاب من أجل المال فلا بدّ أن تكون النتيجة نفس نتيجة بلعام زعيم

السوء ، وأولهم ، لنستمع إلى الله تعالى وهو يحدثنا عن هذا المشهد الأخّاذ :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا . . . ﴾ [الأعراف : ١٧٥ـ١٧٦] .

ويأتي تعميم ذلك بعد أن خصص ما فعله بلعام ، ليقول الله تعالى وفي السورة نفسها ، وليكون ذلك القول من خطوط الإسلام العريضة الثابتة :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٩] .

وهذا تفسير رسول الله ﷺ لذلك إذ يقول : «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم ، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[1] .

● **الغني قارون :**

أورد بيان الله تعالى قصة قارون تفصيلاً في عدة مواضع في القرآن الكريم من ذلك في سورة القصص : /٧٦ـ٨٣/ وفي سورة غافر /٢٤/ وفي سورة العنكبوت : /٣٩/ وقد أفاض المفسّرون والعلماء في الحديث عن هذه القصة لما فيها من العبر والمواعظ[2] .

وسنأخذ مشهداً واحداً من كتاب الله تعالى دون تعليق أو شرح ، يقول الله تعالى في سورة القصص :

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) للتوسع في ذلك يراجع البداية والنهاية لابن كثير: ١/٢٨٨.

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٧٦-٨٣] .

فماذا استفَدْتَ من المال الكثير يا قارون ؟!

● أهل ضروان!!

ضروان هذه إحدى قرى اليمن ، كان فيها البساتين والأنهار ، ولما مات صاحبها خان الأولاد الوصية فماذا كانت النتيجة ؟!

لن نذهب إلى هنا وهناك ، إنما سنكتفي بتلاوة آياتٍ من سورة القلم :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل

لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم : ١٧-٣٣] .

وعلق سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ على ذلك بقوله : كانوا من قرية يقال لها ضروان على ستة أميال من صنعاء ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما يحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنته ، ويتصدّق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ـ رأس المال والربح والصدقة ـ فلم يبق لهم شيء.

فماذا نفع هؤلاء البخل والشح في المال على عباده ؟!

● **ثعلبة بن حاطب الأنصاري :**

تحدثنا كتب التفسير أن ثعلبة هذا قال للنبي ﷺ ذات يوم : ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال له : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ، ثم عاود ثانية قائلاً : والذي بعثك بالحق ، لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فدعا النبي ﷺ ، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ونزل وادياً من أوديتها ، وهكذا بعث إليه النبي ﷺ من يجيء الزكاة منه ـ لكن الطمع والبخل وطغيان المال ـ صور له أن الزكاة ليست إلا أخت الجزية ، وعاد الجابي إلى النبي وأخبره بذلك فقال النبي : يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة.

فأنزل الله تعالى آيات تتلى إلى أن يرث الأرض ومن عليها . ليصبح

ثعلبة وأمثاله أنموذجاً للذين يُعطَوْنَ المال والنعم فلا يستخدمونها فيما أمر المنعم الخالق :

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة : ٧٥ـ٧٨] .

ورفض رسول الله بعد ذلك الصدقة منه ، وكذلك أبو بكر وعمر.. حتى مات في عهد عثمان رضي الله عنهم جميعاً ، فماذا استفاد من هذا المال الكثير! ؟

● المعتز بماله ورجاله!!

وترد قصةٌ في سورة الكهف فيها العبر الكثيرة ، ولن نشرح الكثير إنما سنكتفي بتلاوة الآيات بتدبر لنفهم القصة ، يقول تعالى :

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ۚ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ

أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف : ٣٢ـ٤٤] .

ويأتي التعقيب على هذه القصة بقوله تعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف : ٤٥ـ٤٦] .

إنه انقلاب خطير : حيث كان معتزاً بماله ورجاله معتمداً عليهما دون الله تعالى فانقلب ذلك إلى شرك وكانت النتيجة عكس ما كان يحسب .

● **الوليد بن المغيرة :**

أورد البيان الإلهي قصة الوليد بن المغيرة في موضعين من كتاب الله تعالى :

١ـ في سورة القلم /٨ـ١٦/ قوله تعالى :

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم : ٨ـ١٦] .

أرأيت إلى هذه النتيجة للوليد ، الذي اغترّ بماله وأولاده . . قال الفخر الرازي في قوله تعالى ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ : لما كان الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا في الذليل : رغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم من غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين ، فكيف على أكرم موضع من الوجه! ؟

٢ـ في سورة المدثر / ١١ـ٣٠/ قوله تعالى :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : ١١ـ٣٠] .

هل أفاده المال الكثير ؟!

لقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله وبدّلها كفراً ، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها ، وجعل كلام الله من قول البشر ، وكان من نعم الله عليه المال الكثير الواسع والعز المنيع ، والمكانة المرموقة في قومه .

لكن طغيان المال حال بينه وبين السعادة والحقيقية بهذه النعم فكان من الخاسرين .

● **الصحابي أبو طلحة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ :**

كان أبو طلحة من طلائع أهل المدينة الذين استجابوا لله ولرسوله ، وكان مجاهداً بارعاً في رمي النبال ، وفوق ذلك كان مسارعاً إلى التخلّي عن المال إن أراد الله تعالى ، وقد روى البخاري في صحيحه أن أبا طلحة كان أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب أمواله إليه (بيرحاء) وهي أرض مثمرة كانت بقرب المسجد في المدينة ، وكان المصطفى ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب .

ولما نزل قول الله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

قال أبو طلحة للرسول : يا رسول الله ، إن الله تبارك وتعالى ندبنا إلى الإنفاق ، وإن أحب أموالي إليّ (بيرحاء) وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يارسول الله حيث أراك الله.

فنال الوسام التقديري من السيد الجليل رسول الله إذ قال له :

«بخٍ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعتُ ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»[1] .

فقسَّم البستان بين أقاربه وبين بني عمه كما أرشده رسول الله ﷺ .

هذا النموذج اختلف عن النماذج الماضية التي سُقناها من القرآن الكريم ، فهناك طغوا بالمال ونسوا المنعم الحقيقي ، فبدل أن يشكروه راحوا يعصونه بواسطة ما أعطاهم إياه من النعم ، بل سكروا بها فكانت النتيجة الخسارة.

وهنا أبو طلحة واحد من الصحابة الكرام الذين لم يهتموا بالدنيا أتت أم ذهبت ، فراح يقسم أحب أمواله إليه على الفقراء والمساكين فكانت النتيجة معاكسة للنتيجة الأولى «ربح البيع . . .» .

● **عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ :**

روى العلامة ابن كثير ـ رحمه الله ـ عن الزهري أنه قال : تصدّق عبد الرحمن بن عوف على عهد النبي ﷺ بأربعة آلاف ، ثم تصدق بأربعين ألفاً ، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله ، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله ، وكانت عامة ماله من التجارة.

وحينما حضرته الوفاة ، أوصى لكل رجل ممن بقي من أهل بدر

---

(١) للتوسع يراجع الإصابة: ١/ ٥٠٦، والطبقات الكبرى: ٣/ ٥٠٤.

بأربعمائة دينار ـ وكانوا مائة ـ فأخذوها حتى عثمان وعلي ، وقال علي : اذهب يا بن عوف فقد أدركت صفوها ، وسبقت زيفها .

وأوصى لكل امرأة من أمهات المؤمنين بمبلغ كثير حتى كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول : سقاه الله من السلسبيل ، وأعتق خلقاً من مماليكه ، ثم ترك بعد ذلك كله مالاً جزيلا ، من ذلك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت ـ تعبت ـ أيدي الرجال ، وترك ألف بعير ومائة فرس ، وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع .

وكان نساؤه أربعاً فصولحت إحداهن من ربع الثمن بثمانين ألفاً !![1] .

لكن هذا الغنى الكثير هل حال بينه وبين الوصول إلى العلياء ؟ إنه أحد الثمانية السابقين في الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى يوم اختيار الخليفة بعد الفاروق ، وأحد النفر الذين كانوا يفتون في المدينة ورسول الله ﷺ حيّ بين ظهراني المسلمين.

وقد دعا الرسول له بأن يُبارك له في ماله ، وكان ذلك كائناً ، حتى قال هو عن نفسه : فأقبلت الدنيا عليّ حتى رأيتني لو رفعت حجراً لتوقّعت أن أجد تحته ذهباً أو فضة!!

فهل فُتن عبد الرحمن بهذه الزينة والمال الوفير ؟!

لقد نال وسام الشرف من الدرجة الأولى في غزوة تبوك ، فقد صلى عبد الرحمن إماماً بالمسلمين ، وما كادت تتم الركعة الأولى حتى لحق رسول الله ﷺ بالمصلين ، واقتدى بعبد الرحمن وصلى خلفه ، إنها لكرامة رفيعة المستوى لعبد الرحمن حيث اقتدى به سيد الخلق وإمام الأنبياء محمد ﷺ .

والعبرة الأشد تأثيراً ما يحدثنا به التاريخ عنه فيقول :

---

(١) البداية والنهاية لا بن كثير: ٧/ ١٧٠ـ١٧١ .

أُتيَ عبد الرحمن ذات يومٍ بطعام ـ وهو صائم ـ إليه ثم قال : لقد قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، فما وجدنا له إلا كفناً ، إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطّى رجليه بدا رأسه ، ثم بسط الله لنا من الدنيا ما بسط ، وإني لأخشى أن يكون ثوابنا قد عجّل لنا ، ثم جعل يبكي وينشج حتى عاف الطعام!!

لقد نال عبد الرحمن أوسمة عالية من النبي ﷺ على الرغم من غناه وكثرة ماله ، وهذا دليل حيّ ونموذج حقيقي على أن الإسلام لا يحارب الغنى إنما يحارب الطغيان في المال ، والتكبر على عباد الله من خلال ذلك.

ذلك لأن من الصحابة ـ كما قال ابن تيمية في الفتاوي المصرية ـ أغنياء كثر كعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير ، بل من الأنبياء من هو غني كإبراهيم وداود وسليمان ويوسف ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ من تلك الأوسمة قول المصطفى في حقه : **«ما قبض نبي حتى يصلي خلف رجل صالح من أمته ، وإن عبد الرحمن بن عوف سيد من سادات المسلمين»** .

من ذلك أن النبي ﷺ عممّه بيده الشريفة حين أرسله إلى دومة الجندل ودعا له : **«سر باسم الله ، وإن فتح الله عليك فتزوج بنت شريفهم»** .

ومن ذلك أن النبي كان جالساً ومعه بعض الأصحاب فتلا أحدهم بعض آيات القرآن فبكى الناس إلا عبد الرحمن . فظل ساكناً خاشعاً بلا بكاء ، فقال رسول الله ﷺ : **«إن لم يكن عبد الرحمن قد فاضت عيناه فقد فاض قلبه»**[1] .

فرضي الله عنك أيها الثري الكريم وأرضاك.

---

(١) للتوسع يراجع تهذيب التهذيب: ٦/ ٢٤٢، حلية الأولياء: ١/ ٩٨ وصفة الصفوة: ١/ ١٣٥، والفتاوى المصرية: ٥٧٣ـ٥٧٤. =

● **عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ :**

من المبشرين بالجنة ، وزوجه رسول الله ﷺ ابنته رقية فلما ماتت زوجه بالأخرى أم كلثوم ، ورد في حقه أحاديث شريفة منها :

ما رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه بالسند المتصل إلى سهل بن سعد قال : ارتجّ أُحُدُ وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان ، فقال النبي : «**اسكن أحد ، فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان**» وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال في قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٩] .

قال : هو عثمان بن عفان .

ومع ذلك كله كان غنياً كثير المال ، لكن كان المال بالنسبة إليه وسيلة لغاية عُليا هي الوصول إلى رضا الله ورسوله والفوز بجنانه ، لذلك لما انتدب رسول الله ﷺ الناس للانفاق على تجهيز جيش العسرة ـ وهو على المنبر ـ قام عثمان فقال : عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم حث النبي أكثر ، فقال عثمان عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، ثم نزل النبي درجة من المنبر ثم حث ، فقال عثمان : عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها .

يقول راوي الحديث : فرأيت رسول الله ﷺ يُقَلِّبها في حجره ويقول : «**ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم**» رواه الترمذي .

كذلك في بئر رومة : وهو البئر الذي كان بالمدينة ، ولم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن فاشتراها عثمان وجعلها لجميع المسلمين وقال الرسول ـ فيما يرويه البخاري ـ في ذلك : «**من حفر بئر رومة فله الجنة**» .

والحديث في ذلك يطول[1] لكن المغزى هل أثر المال على مسيرة عثمان ، أم أنه استطاع أن يستغل المال في مرضاة الله وخدمة الناس ؟!

● **طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ :**

لقبه الشهيد الحي!! فقد أبلى في أُحُد بلاءً عجيباً ، ودافع دفاعاً مريراً عن حبيبنا محمد ﷺ حتى أصيب ببضع وسبعين ضربةٍ أو طعنة برمحٍ ، فقال الرسول فيه : **«من سرّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض ، قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»** .

ولقّب بطلحة الخير وطلحة الجود!! ذلك لأنه كان تاجراً ثرياً ، وذات يوم جاءه مال من حضرموت مقدار (٧٠٠,٠٠٠) درهم ، فهل فرح وتكبر وبخل وكنز ؟ تحدثنا سيرته العطرة : أنه بات ليلته خائفاً جزعاً محزوناً .

وأحسّت زوجه أم كلثوم بنت أبي بكر بذلك فقالت مالك يا طلحة لا تنام ؟ قال : ما ظنّ رجل بربه إذا كان ينام وهذا المال في بيته! ؟

فاقترحت عليه أن يوزع هذا المال على الفقراء والمحتاجين ، وبالفعل راح يوزعه في صُرر ويقسمه على الفقراء والمهاجرين والأنصار.

فهل كان المال بيده نعمة له أم نقمة عليه ؟!

● **حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ :**

لما أسلم باع دار الندوة التي كانت تُعقد فيها مؤتمرات ومؤامرات الجاهليين ، وجعل ثمنها في سبيل الله قائلاً : أشتري بها بيتاً في الجنة . . .

ولما حجّ بعد إسلامه ، ساق أمامه مائة ناقة مجلّلة بالأثواب الزاهية ثم نحرها جميعها تقرباً إلى الله ، وفي العام القادم وقف في عرفات فأعتق مائة

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع كتابنا: علي بن أبي طالب مستشار أمين للخلفاء الراشدين باب: خلافة عثمان.

من عبيده قائلاً : عتقاء الله عز وجل عن حكيم بن حزام. . . وفي العام الذي جاء بعده ساق أمامه ألف شاة ، وأراق دمها كلها في منى وأطعم لحومها فقراء المسلمين ، فهل كان المال وسيلة أم غاية عند حكيم! ؟[1] .

● **الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ :**

أورد البخاري : أن الزبير كان له أربع نسوة ، فلما مات أصاب كل امرأة ألف ألفٍ ومائتا ألف (١,٢٠٠,٠٠٠) فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا (٥٠,٢٠٠,٠٠٠).

إذن كم كان الزبير يمتلك من الأموال ؟

أورد ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في صفة الصفوة : أن الزبير كان له ألف مملوك يؤدون الضريبة ، لا يدخل بيت ماله منها درهم ، يتصدق بها ويقسمها كل ليلة ثم يقوم إلى منزله ليس معه شيء منها!!

وأورد صاحب الأعلام : أن الزبير كان موسراً خلف ثروة تقدر بأربعين مليون درهم![2] .

فهل أثر ذلك الغنى عليه وجعله من المتكبرين ؟

أبداً ، لقد باع داراً له بستمائة ألف ، فقيل له : يا أبا عبد الله غُبنت ، قال : كلا والله لتعلمن أني لم أغبن هي في سبيل الله.

وعلّق له النبي ﷺ وساماً من الدرجة العليا ، حيث قال له يوم الخندق:

«**لكل نبي حواري ، وحواريّ الزبير**» رواه البخاري ومسلم .

---

(١) للتوسع يراجع: الإصابة ٢/٣٤٩، شذرات الذهب: ١/٦٠ والملل والنحل: ١/٢٧، وسير أعلام النبلاء: ٣/١٦٤.

(٢) الأعلام للزركلي: ٣/٧٤، وصفة الصفوة: ١/١٨١.

● **عبد الله بن المبارك ـ رضي الله عنه ـ :**

قال عنه أبو نعيم في الحلية : السخي الجواد ، الممهد للمعاد ، المتزود من الوداد ، أليف القرآن والحج والجهاد.

ورث التجارة عن أساتذته ، وكان له الأرباح الوفيرة ، وكان رأس ماله أربعمائة ألف يطوف بها البلاد ، ومع ذلك فقد جمع مع المال العلم والحكمة والزهد وحب الجهاد والحج ، وعندما سألوه : ما التواضع ؟ قال : التكبر على الأغنياء.

ووقف ذات يوم بين مقبرة ومزبلة ، فقيل له : ما وقفك ؟

فقال : أنا بين كنزين من كنوز الدنيا فيهما عبرة ، هذا كنز الرجال ، وهذا كنز الأموال!! فهل منعه المال من أن يكون أحد العلماء العاملين المخلصين ؟!

● **عتبة بن غزوان ـ رضي الله عنه ـ :**

بعد أن فتح الأُبلّة وكانت الغنائم كثيرة جداً ، خاف عتبة من إقبال الدنيا وزخارفها فبنى البصرة وبقي هو يسكن في خيمة متواضعة.

ووقف ذات يوم في مسجد الكوفة وقال في خطبته : أيها الناس إن الدنيا قد آذنت بالإنقضاء ، وأنتم منتقلون عنها إلى دارٍ لا زوال فيها ، فانتقلوا إليها بخير أعمالكم ، ولقد رأيتني سابع سبعةٍ مع رسول الله ﷺ ، وما لنا طعام غير ورق الشجر حتى قرحت منه أشداقنا ، ولقد التقطت بردةً ـ ذات يوم ـ فشققتها بيني وبين سعد بن أبي وقاص ، فأتزرت بنصفها ، وأتزر سعد بنصفها الآخر ، فإذا نحن اليوم لم يبق منا واحد إلا وهو أمير على مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بالله أن أكون عظيماً عند نفسي صغيراً عند الله .

ثم استخلف عليهم رجلاً منهم ، وودعهم ومضى إلى الفاروق

ـ رضي الله عنه ـ وطلب أن يعفيه من الولاية ، لكن الفاروق رفض ذلك ، وأعاده إلى الكوفة ، فلما خرج من مجلس عمر قال : اللهم لا تردني إليها!!

واستُجيب دعاءه فعثرت ناقته وانتقل إلى الله زاهداً في الدنيا ، تاركاً الأموال والمناصب والزخارف ، طامعاً بما عند الله.

● **قيس بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ :**

كان من أدعيته : اللهم ارزقني حمداً ومجداً وشكراً ، فإنه لا حمد إلا بفعال ، ولا مجد إلا بمال ، اللهم وسّع عليّ ، فإن القليل لا يسعني ولا أسعه .

إنه بهذا يعطينا الميزان الحقيقي : المال هو بحسن استخدامه وتوجيهه نحو الخير والبر ، وللمال أهمية كبيرة في الحياة ، لكن المهم أن يكون من طرق سليمة ـ بالحلال ـ وأن يأخذه لا للكنز إنما للتنمية ، لا للطغيان والفساد إنما للإصلاح والخير والتعاون والتقوى لذلك تحدثنا سيرته العطرة أنه كان يوزع الطعام على الجائعين ، وكان له منادٍ ينادي على طعامه ليحضره من يشاء من الناس ، وكان إذا أقرض ورأى فيه عسرة تركه لوجه الله الكريم.. نعم «**نعم المال الصالح في يد العبد الصالح**» .

● **أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ :**

ضُرب بها المثل بالجود ، حتى قال ابنها عبد الله بن الزبير : ما رأيت امرأتين قط أجود من خالتي عائشة وأمي أسماء ، لكن جودهما مختلف .

أما خالتي فكانت تجمع الشيء إلى الشيء ، حتى إذا اجتمع عندها ما يكفي قسمته بين ذوي الحاجات ، وأما أمي فكانت لا تمسك ـ لا تستبقي شيئاً إلى الغد ـ هذا الجود كان صفة حميدة فيها لم تخش الفقر إذا أنفقت ، إنما كان ما يأتيها من مال تستخدمه في سبيل خدمة عباد الله ولحلّ مشاكلهم.

فرضي الله عن ذات النطاقين وأرضاها.

● وفي الجعبة أمثلة وأمثلة، يقف التاريخ مندهشاً متعجباً أمامها متسائلاً: أهؤلاء الناس كانوا بشراً أم كانوا قوماً آخرين؟ هل كانوا صفوة من الملائكة المقرّبين؟ أم هل هبطوا إلى كوكبنا من العلياء؟ كيف استطاعوا أن لا ينخدعوا بالدنيا حين فتحت عليهم؟ كيف لم يستطع المال أن يخدعهم؟ كيف استطاعوا أن يحوّلوا فتنة المال إلى طريق موصل إلى جنان الخلد حين سخّروه بدل أن يسخِّرهم، وحين استعبدوه بدل أن يستعبدهم؟

نماذج ونماذج يحدثنا التاريخ عنها ليثبت لنا ما قلناه سابقاً أن الإسلام لا يقف من الغنى موقف العداء، بل على العكس تماماً، إنه يحض المسلمين على أن يكونوا أغنياء.. أن يضعوا الأموال في جيوبهم لا في قلوبهم، أن يستخدموها في طرق الحلال لا أن تسكرهم ليغرقوا في المعاصي والحرام[1].

* * *

(١) للتوسع أكثر يراجع: صفة الصفوة لابن الجوزي، حلية الأولياء: لأبي نعيم، وفدائيون في تاريخ الإسلام للشرباصي، وسير أعلام النبلاء للذهبي، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، والاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر، وكتابنا: علي بن أبي طالب مستشار أمين للخلفاء الراشدين، وكتابنا المسيرة التاريخية لتطبيق الزكاة...